المحاضرة الثانية: الروافد الابستيمولوجية للسيميولوجيا

(الفكر الفلسفي)

لكل علم متكآته الابستيمولوجية يستمد منها كيانه العلمي، وإلا فإنه سيكون مشوها لا طبيعة له توضحه وتشرحه وتساعد على فهمه، ولن تحيد السيميولوجيا في سعيها للعلمية عن هذا الشرط، لذلك وجدت نفسها في إطار تأسسها تستند إلى ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العلوم والمعارف، ومن حيث تدري او لا تدري حضرت هذه العلوم في متكآت الدرس السيميائي ومنجزاته.

انصرف الفكر الإنساني للانشغال بماهية الوجود وفهم ظواهره وموجوداته، فتصدى الفلاسفة للبحث في حقيقة الكون بما ذلك اللغة باعتبارها اداة للتواصل " لم تغب اللغة عن أي فيلسوف لارتباطها بنظرية المعرفة لكن اختلاف الرؤى بين الفلاسفة كان الفارق بين فيلسوف وآخر...إلا أن ثمة اتفاقا بين الفلاسفة على أن اللغة هي رموز يعبر بها عن الأفكار وأنها صورة ومفهوم أو محمول وموضوع "[1]

إن الفلسفة في إطار ما ستتوصل إليه من إجابات لتأملاتها ستكون في حاجة إلى فكر سيميائي يساعدها على تقييد هذه المعارف تقييدا سيميولوجيا يسمح للإنسان بالعودة إليه أو تذكره.

ومن ثمة أقامت الفلسفة مبحثا معرفيا هاما للغة يختص بكينونتها وكيفية استعمالها وتوظيفها، فهي أداة الاتصال والحاملة للدلالة والأفكار، ومن حيث أن السيميائية ارتبطت بمفهوم العلامة الضارب بجذوره في الفكر الفلسفي فإن هذا الارتباط الوثيق بين السيميولوجيا والفلسفة بشكل عام يعد أمرا معقولا من حيث أنهما معا " تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكياته، أي معانيه وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[2]

1- الفلسفة اليونانية القديمة:

وقفت الفلسفة اليونانية طويلا أمام ماهية الوجود بغية الكشف عن الحقيقة عبر نظرية المعرفة وارتباط هذه الأخيرة بالعلامة بحسبها الأداة الموصلة إليها، لذلك ظل التفكير بالعلامات وحول العلامة في آن واحد شغل بال الفلسفة منذ العصور القديمة مرورا بالعصور الوسطى والحديثة إلى أيامنا هذه " فلا يمكن دراسة ظواهر الوعي بمعزل عن العلامات من حيث أن السيميائيات تضطلع بعملية إضفاء الخصيصة البنيوية على صور المعرفة وأشكال التعبير " [3]

وسنعرض فيما سيلي غلى أهم المحطات التي وجد فيها الفكر السيميولوجي ضمن البحوث الفلسفية اليونانية عند مختلف أساتذتها ونظارها ومدارسها.

يعتبر الإغريق أول من بدأ التأمل في العلامة، وكان ذلك في بحوث **المدرسة الشكية** المعرفة باسم "Septicism" والتي تعني البحث القائم على التشكيك، ويرى الفيلسوف اينيديموس Aanesidemus رائد هذه المدرسة أن البحث عن المعرفة يتلخص في عشر صيغ مختلفة وهي جميعا مستقاة من تحليل للعلامات، ويرى ان هذه العلامات ليس دوما ظاهرة ومتجلية فلولم تكن مستترة أحيانا لأمكن للجميع أن يطلع عليها وبالتالي تصير المعرفة متاحة للكل."[4]

وانسحب على ذلك ما تناوله الطب الإغريقي مستفيدا من بحوث المدرسة الشكية، إلا أنه اختلف عنها في اعتماده التجربة مميزين في ذلك بين العلامات العامة والعلامات الخاصة في إطار ما يعرف بعلم البحث عن أعراض الامراض.[5]

فالعرض عند أبيقراط Ippocrate ليس علامة إلا في حدود الاستدلال المنطقي، اي أن العرض ينظر إليه في حدود ما تسهم فيه جملة من الشروط المحيطة به حينها يصبح وظيفة علامية يمكن تقييمها وضبطها وإلا فغنه يظل ملتبسا.[6]

أما برمنديس Parménide فقد ميز بين العلامة والكلمة التي هي الاسم، حيث ان العلامة عنده "تشير إلى دليل واضح، الى مبدأ استدلال" [7] على خلاف الكلمة او الاسم الذي يطلق اعتباطا مقيما معادلة مزيفة مع الواقع على حد تعبير ايكو.

اتفق افلاطون أرسطو في تناولهما للغة باعتبارها أداة الاتصال والحجر الأساس في نظرية المعرفة حيث عداها ذات طبيعة تداولية تتحدد من خلال وظيفتها التواصلية كما عبر عن ذلك امبرتو إيكو حين قال " إن المقابلة بين تداولية الأقوال ودلالة الوحدات السيميائية تعني تحويل الاهتمام من انظمة الدلالة إلى عمليات التواصل ولكن المنظوران يتكاملان"[8]

فقد وظف أفلاطون لفظ (sémiotique) للدلالة على فن الإقناع وهذا ما أورده في كتابه وأكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة توصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها تلاؤم طبيعي بين الدال والمدلول"[9]

بالإضافة إلى ذلك فإن نظرية المعنى لم تغب عن أفلاطون وأرسطو ولم تتجاوز النموذج المنطقي الذي يربط بين مقولات اللغة ومقولات الفكر فدراستهما للغة تتركز على إدراكها الفعلي ومدى ارتباط هذا الإدراك بالمقولات الفلسفية في إدراك ماهية الوجود.

وقد ارتبطت السيميولوجيا عند أرسطو بالمنطق باعتباره عملية تحليل الفكر وأشكاله وصوره [10]، ومن خلال ذلك يمكن تقسيم ما قام به أرسطو في مجال السيميائيات إلى قسمين كبيرين: الأول في حديثه عن الكلمة والثاني خصصه للحديث عن العبارة " فالقسم الأول من اهتماماته يخص المعرفة اللغوية وقد جاء مضطربا إذا تأرجح بين إثبات علاماتية الكلمات والأسماء أو نفيها...أما القسم الأخر من أثر أرسطو فقد خصه في حديثه عن العبارة وهو حديث أكثر وضوحا من سابقه وكان ذلك في كتابه الخطابة "[11]

والملفت للانتباه أن أرسطو كان يعي أكثر أهمية الخطابة بحسب احتوائها على عناصر العملية التواصلية النص والمؤلف والجمهور أما النص فهو مكون من العلامات ويقسمها أرسطو إلى قسمين ضرورية وغير ضرورية، أما الضرورية وهي "تلك العلامة التي ترد إلى سياق منطقي غير قابل للتفنيد لتعارضه مع المنطق العقلي "[12]

اما العلامات غير الضرورية ففي نظر أرسطو هي تلك العلامات المصاحبة للعملية التواصلية والتي لا تخضع للقياس المنطقي وتحتمل التكذيب.

ويتضح من خلال ما سبق أن ارسطو كان أول من ألمح إلى فكرة التأويل التي قال بها امبرتو ايكو محاولا أن يمنح المتلقي حرية التأويل وهذا من صميم الدرس السيميائي بوصفه منهجا نقديا.

2- الرواقيون

هذه المدرسة الفلسفية المتشكلة بعد انفتاح الفلسفة اليونانية على حضارات أخرى خصوصا البحر المتوسط حيث جمعت هذه الفلسفة بين المنطق والاخلاق والعلم الطبيعي وكان لها إسهام واسع في مجال التفكير السيميائي، حيث استفادوا من كل ما قدمه أرسطو وأفلاطون فيما يتعلق بالعلامة .

يدخل الرواقيون المنطق ضمن أبحاثهم السيميائية " وبحسب مذهبهم يجب على المنطق أن يدرس في الوقت نفسه الأمارات الشفوية والمفاهيم المدلولة بها"[13]، حيث أن الأمارات هي الكلمات والجمل التي هي تلك الكلمة المنطوقة واطلقوا عليها كلمة "**قولا**" وهي حسبهم ليست فحسب إصدار صوت بل بالإمكان إدراك معناها والتعرف عليها لأنها مرتبطة بكلمة العقل أو القلب".[14]

هذا يعني ان العلامة عند الرواقيين هي صوت مادي يتم التعرف عليه وفق قاعدة تعالقية تربط بين ثلاثة عناصر: العبارة والمضمون والمرجع، حيث لا يتسنى لغير المدرك والمطلع على هذه القاعدة فهم العلامة وإدراكها، والذين يسميهم الرواقيون بالهمجيين.

وقد كان الرواقيون أول من ميز بين الدال والمدلول والشيء، وإن كانوا يطلقون على الأول قولا والثاني مضمونا "فالعلامة عندهم الأقوال وليس الأحداث المادية فتختص بإمكانية وجود علاقة بين حدثين متعاقبين وبذلك يكونون قد وضعوا نظرية شاملة إذ ميزوا بين الدال والمدلول والشيء"[15]

الملاحظ على تعامل فلسفة الرواقيين مع العلامة انها تجمع بين نظرية اللغة ونظرية العلامات بحيث أنه " لكي توجد علامات يجب ان توجد قضايا والقضايا يجب أن تنتظم داخل تركيب منطقي يعكسه التركيب اللغوي ويجعله ممكنا، فالعلامات تبرز فقط عندما يمكن التعبير عنها بصفة عقلية من خلال عناصر اللغة، واللغة تتركب لأنها تعبر عن أحداث محملة بمعنى"[16]

معنى ذلك أن الرواقيون يؤكدون على أمرين اثنين: الأول هو الطبيعة اللغوية للعلامة بل ويجعلونها ذات وظيفة إبلاغيه عن معنى معين ويعبرون عنها بلفظة القضية، مستفيدين من المنطق الأرسطي في هذا التصور" فإن طبيعتها الاجتماعية فرضت على الفلسفة الرواقية أن تدمجها في القضايا المنطقية"[17]

الأمر الثاني هو تنوع العلامة من خلال تنوع التركيب اللغوي الذي يمنحها تلوينات مختلفة وهو ما تمكن الرواقيون من الوقوف عليه باعتبار أصولهم غير اليونانية.

واستنتاجا مما سبق فقد قدمت الفلسفة الرواقية الإضافة الهامة في ما يتعلق بالتفكير السيميائي، حتى وإن كان ذلك في إطار البحث في فلسفة المعرفة والإدراك.

3- القديس سانت أوغسطن:

يعد هذا المفكر رجل الدين المسيحي محطة هامة من محطات تبلور الفكر السيميولوجي، حيث أحدثت أعماله الخاصة في تفسير النصوص الدينية نقلة نوعية في مجال التعامل مع العلامة، حيث قدم البعد الثلاثي للعلامة، مدخلا فكرة التأويل، فهو "اول من طرح السؤال: ماذا يعني أن نفسر أو نؤول؟؟[18]

إن ذلك بدا جليا من خلال إسهامه في بلوة نظرية سيميائية تعتمد الخطاب الديني منطلقا لها حيث تقوم العلامة عنده على علاقة علامة/مفهوم ولكي تكتمل لابد من أن يكون تأويل خاص بهذه العلامة، " ويتجلى مذهب أوغسطين في الكلمة على ثلاث مستويات: الاول بوصفها صوتا منطوقا والثاني بوصفها رمزا يدل على كيان آخر، والثالث في أن الكلمة

تجسيد لعلاقة وجدانية عامة تتأسس على الارتباط المقدس"[19] فثمة دال وصوت إدراك ذهني لمجموع الدال والصوت.

كما يؤكد معظم الباحثين أن أوغسطين كان من أوائل من ركزوا على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل من خلال تمييزه بين نوعين من العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية وبين وظيفة العلامات عند الحيوان ووظيفتها عن البشر، وبالتالي فإن وظيفية العلامة هي التي تحددها.

إن مساهمة أوغسطين تكمن بشكل مخصوص في ما يتعلق بالسيميائيات مقدما مفاهيم سيميائية "ترتكز على ثنائية (الطبيعة/الثقافة) أحدثت حضورا في السيميائيات التواصل والدلالة على حد سواء.[20]

4- فلسفة القرون الوسطى:

- **منطق بور رويال:** قدمت هذه المدرسة التي تأسست في فترة تاريخية بدأت تعرف نهظة فكرية وثقافية واسعة في حين كان العصر الوسيط يجهل اللغة اليونانية ومن ثم لم يكن متاحا فهم الإرث الفلسفي اليوناني.

هذه المدرسة أسست لمنطق جديد غير المنطق الأرسطو وعدته فنا من الفنون، وقد قدمت هذه المدرسة كما هائلا من المفاهيم التي أسست قواعد بالمعنى العلمي للتفكير حول العلامة "وبناء على نزعتهم الداعية إلى تأسيس قواعد عامة فقد قسمو الكلمة الكلاسيكية إلى تسعة أقسام:(الاسم والأداة والضمير والبرتسيل وحرف الجر والظرف والفعل والرابطة والتعجب، ولكنهم أعادوا تقسيمها على أساس دلالي، فالأقسام الستة الأولى ترتبط بمقاصد تفكيرنا، وترتبط الثلاثة الأخيرة بشكل أو طريقة هذا التفكير"[21]

وما يعنينا من هذه المدرسة في شأن تصوراتها السيميائية هي أنها اهتمت بالتعريف مميزة بينه وبين الكلمة، حيث ان للكلمة تعريفان الأول اسمي والآخر واقعي بحيث يكون الأول اعتباطي في حين أن الثاني يمكنه من خلال طبيعته حمل كل أنواع الأفكار عنه فهو يكون واضحا في ذاته كمسلمة.[22]

وخلاصة ما قدمته هذه المدرسة المنطقية أساسا قد قدمت مفاهيما اتكأت عليها السيميائيات الحديثة خصوصا فيما تعلق بمفهوم المحايثة وكذا مفهوم القصدية الذي سيوجد في سيميولوجيا التواصل ومفاده عندهم أن كل فعل عقلي ضروري لبناء ملفوظ يجتهد من أجل بناء تمثل للتفكير الإنساني الذي يرتكز ارتكازا كليا على مضامين الوعي التي هي الأفكار "[23]

وفهم ذلك ان الأفكار تحتاج دوما لفعل عقلي يخصص لإنجاز علامة تتمثل تلك الأفكار قصد إيصالها وليس لمجرد تمثلها فحسب.

جهود جون لوك:

كان لهذا الفيلسوف بحوثه المتعلقة بالنظرية التجريبية المادية كطريق للمعرفة بدل التفكير المثالي، معلنا على أن التجربة مصدر كل الأفكار وإن هذه الأخيرة ما هي في الحقيقة إلا نتاج إما لعوامل خارجية بواسطة الحواس أو بواسطة التأمل والانتباه.

وما يعنينا في هذا أن لوك هو أنه قدم تصورا جديدا لفلسفة المعرفة حيث حصرها في ثلاث علوم: الفيزياء والأخلاق والسيميائية[24] ليكون أول من أشار لتسمية السيميولوجيا أاو السيميائيات بوصفها فرعا من فروع الفلسفة وإن كانت نظرته لم تتجاوز النظرية العامة للغة فهو يقول عنها " إنه العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما ويكمن هدف هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين."[25] فالسيميولوجيا عند لوك هي أداة معرفية توصل إلى الفهم عبر علامات تعتمدها اللغة ويستوعبها الفكر.

فلسفة هوبز:

ترتبط فلسفة هذا الأخير بالإسمية فقد كان **هوبز** يولي الأسماء اهتماما كبيرا بل ويعتبرها كنه العملية التدليلية وبالتالي فهي كلية تتمتع بقدر كاف من المرونة لتتسع أو تضيق، فالعلامات عنده اسمية يسند إليها حمل كل ما تتصوره الأذهان حيث قسمها إلى نوعين:" علامات طبيعية معطاة يستطيع العقل أن يهتدي إليها عن طريق الأقيسة والاستدلالات وعلامات

وضعية من إبداعات البشر الذين يبتكرون ألسنتهم للإبانة عن مكنوناتهم وكل ما تتصوره الأذهان هو أسماء" [26]

ويعتبر هوبز أن الأسماء– والتي يعني بها العلامات– إذا كانت غير ثابتة فهي تؤدي إلى السيميوزيس ومعنى ذلك أنها مرشحة لحمل العديد من المعاني وهو ما يمنعها من حمل العلم على حسب فكر هوبز لأنها تتباين من فرد إلى فرد ومن حقبة إلى حقبة أخرى مثلما هو الحال بالنسبة إلى بعض المفاهيم السياسية والقانونية التي تكون مدلولاتها في الغالب تتسم بالالتباس والغموض" [27]

والعكس صحيح في حال ما كانت الأسماء محددة فهي على ذلك خادمة للعلم وصالحة لحمل مفاهيمه بدقة، وهو ما دفع به إلى وضع ما يسمى نظرية المقولات منتزعا من الاسم أو العلامة اربعة أصناف : الأجسام، الأعراض، الظواهر، الأسماء ذاتها، ويستبدل هوبز المعاني الكلية بالأسماء ومن هذه الأسماء ما هو مركب وما هو بسيط وكلما أضفنا إلى الاسم البسيط اسما او اسمين حصلنا على اسم أو أكثر تركيبا[28]

فلسفة دافيد هيوم:

تبرز أهمية هذه الفلسفة بصفة أساسية في اعتماد هيوم على فكرة العلة والمعلول والتي يرجعها إلى العادة التي تأتي من تكرار التجربة فهو في هذا الصدد يعتقد أن " الناس قد اعتادوا أن يستمدوا من أداء شيء معطى في الماضي أداء مشابها للشيء في المستقبل وهم لا يقومون بهذا الاستدلال إلا بقوة العادة" [29]

وهو بهذا الزعم يحاول إسقاط الأداء اللغوي على هذا المبدأ، حيث يعتبر أن لا علاقة اعتباطية أو أولية أو برهانية بين الدال والمدلول وإنما هي علاقة ناجمة من اعتياد جمع من الناس لفترة طويلة يجمع بينهم إيمان عام جماعي بسلامة هذه العلاقة " فإيمان الأشخاص بسلامة العلاقة بين الدوال والمدلولات هو الذي يمنحها الشرعية التداولية داخل المحيط الاجتماعي."[30]

لايبنتز:

إن هذه الفلسفة قائمة على أساس أن حقيقة الأفكار وصدقها متضمن داخل العقل نفسه ولا تناقض فيها، أي أنه على خلاف مفهوم الحقيقة عند أرسطو مطابقة الفكر للواقع الخارجي.

من ثمة فإن لايبنتز ينظر إلى العلامة على مقاس منطقي مبني على مبدأ التناقض الذي مفاده "أن كل قضية صادقة إذا تم صوغها صوغا دقيقا وسليما فإنها تحتوي على موضوع لها، وعليه فإن العلامة هي بمثابة الشيء الذي يعبر عن شيء آخر ولكن على شرط أن تكون هناك علاقة نسقية ثابتة بين العلامة وما يمكن أن يقال عن الشيء الآخر"[31]

وانطلاقا من ذلك فإن سيميائية لايبنتز من هذا المنطلق قائمة على الدلالة والتواصل وقد اعترفت للحروف بالسمات المرئية التي تمثل الأفكار وبالاعتباطية ومنح العلامات وظيفة معرفية على نحو غير مسبوق في تاريخ المعرفة الإنسانية.[32]

كما أن مساهمة لاينتز نلفيها في تصوره القاضي بأن لكل العلوم أصولا جوهرية مشتركة، وعندما بتمكن الإنسان من تشكيل علامات تدل على هذه الأصول يكون بذلك قد أتم موسوعة العلوم" [33] والقصد من ذلك أن الأفكار في النهاية يمكن التعبير عنها بواسطة علامات تقوم باختزالها ومن ثم التحكم فيها.

---

1 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، منشورات الاختلاف ومنشورات الضفاف، الرباط، ط1، 2013م، ص22.

2 – سعيد بنكراد: السيميائية مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 07.

3 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة: مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2005، ص 09.

4 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص22.

5 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6 – امبرتو ابكو: السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الأصمعي، المنظمة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص70.

7 – المرجع نفسه، ص 71

8 – المرجع نفسه، ص62

9 – عبيدة صيطي ونجيب بخوش: مدخل إلى السيميولوجيا، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2009م، ص09.

10 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 17.

11 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص 25.

12 – المرجع نفسه، ص 26.

13 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص28.

14 – امبرتو ايكو : السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص77.

15 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص29.

16 – امبرتو ايكو : السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص81.

17 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص29.

18 – ميشال أريفيه وآخرون: السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، دط، 2002.

19 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص 31.

20 – أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة، الدار العربة للعلوم ومنشورات الاختلاف، ط1، 2005، الجزائر، ص 32.

21 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 48.

22 – ينظر: المرجع نفسه، ص 49.

23 – المرجع نفسه، ص 51.

24 – امبرتو ايكو: السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص33.

25 – مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد لحميداني وآخرون، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، دط، ص03.

26 – احمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص57.

27 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

28 – ينظر : المرجع السابق، ص 61.

29 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص35.

30 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

31 – أحمد يوسف : الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص ص 65–66

32 – المرجع نفسه، ص63.

33 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 25.